مع أول شعاع تسلّل من نافذة الغرفة، كان ثائر، الفتى ذو الأربعة عشر عامًا، قد نهض من سريره بلهفة لم يعرف مثلها منذ زمن. غسل وجهه على عجل، فرش أسنانه، وارتدى ثيابه وهو يردد في نفسه :اليوم لن يكون كأي يوم .خطف خطوات سريعة نحو غرفة الطعام، حيث اجتمع الأبوان وشقيقته الكبرى زهرة حول مائدة الإفطار.

ثائر ـ الذي طالما ملّت أقدامه جدران الشقة الضيقة ـ استقبل أول أيام العطلة الصيفية بفرح طفولي صاخب. طوال العام كان يعدّ الأيام، منتظرًا تلك اللحظة التي ينعم فيها بالرحلات التي وعدته بها والدته مرارًا، وعلى رأسها الرحلة إلى بيت الجد في رفح، جنوب القطاع. بيت الجد لم يكن مجرد مكان؛ كان في خياله بوابة للانعتاق من ضيق المدينة، ومساحة تُعيد إليه رائحة التراب والحقول.

منذ سنوات لم يُتح له أن يذهب؛ الدراسة كانت عذرًا، وبعد المسافة كان شماعة جاهزة على لسان الأم. لكن الآن... لا دراسة، لا أعذار، لا تأجيل. واليوم تحديدًا حصل على وعد قاطع: سيرافقها إلى هناك. جلس على المائدة وهو يلمع في عينيه بريق مختلف، بينما تغيب عنهم محمود ـ الأخ الأوسط ـ الذي فضّل الغوص في نومه العميق، متحديًا نداءات الأم المتكررة. الأب اكتفى بزجرها برفق :دعيه... هو هكذا دائمًا .كان يعرف أن محمود يلوذ بالكسل متذرعًا بـ«الإجازة الرسمية»، معلنًا استقلاله عن جدول الأسرة.

خالد أبو جبر، رب الأسرة، مهندس برمجيات يعمل في شركة للإلكترونيات، بدا مشغولًا بجرس هاتفه الذي لا يهدأ. بجانبه جلست وفاء خضر، طبيبة الأطفال التي جمعت بين عملها في المستشفى وعيادتها الخاصة التي افتتحتها حديثًا. أما زهرة، الابنة الكبرى، فطالبة حقوق في سنتها الجامعية الأولى؛ شغوفة، ذكية، ومرهقة قليلًا من ضغط المحاضرات. وبينهم يجلس ثائر، أصغر الأبناء، طالب المرحلة الإعدادية، الأكثر فضولًا والأكثر توقًا للمغامرة.

العائلة تقطن شقة صغيرة في برج سكني بحي الشيخ رضوان في غرب غزة. مكان آمن ومستقر بالنسبة لهم، لكنه بالنسبة لثائر كان أقرب إلى سجن. المصعد الطويل، الأدراج المملة، الجدران الضيقة... كلها أثقلت روحه. كان يحلم ببيت واسع بحديقة، أو بقرية يركض فيها بلا جدران. لذلك، كان يترقب هذه العطلة بلهفة، عازمًا أن يستغلها بكل ثانية، بخلاف أخيه محمود الذي وجد في الصيف فرصةً إضافية للغرق في ألعاب الفيديو.

على مائدة الإفطار، راحت زهرة تداعب ثائر بأسئلة خفيفة عن توقعاته للرحلة. كان يجيب بحماس طفولي لا يخفيه. في تلك اللحظة لاحظت الأم أن زهرة تبدو شاحبة. نظرت إليها بعين الطبيب، فرأت ملامح دوار وتوعك. سألتها بقلق:

ـ ما بكِ يا ابنتي؟

ـ لا شيء... مجرد دوار بسيط، أجابت زهرة بابتسامة باهتة.

أوصتها الأم بتناول بعض الأقراص وطلبت منها أن تلغي محاضراتها إن شعرت بإرهاق، لكن زهرة أصرت على الذهاب. وما هي إلا دقائق حتى

أنهت إفطارها، قبّلت والديها وغادرت، تاركة خلفها صدى خطواتها وإحساسًا غامضًا لدى الأم بأنها لم تكن على ما يرام.

أما ثائر، فقد نهض مسرعًا إلى غرفته، ليعود بعد لحظات وهو يحمل حقيبة ضخمة، يكاد حجمها يفوقه. أخرج منها قمصانًا وبناطيل وملابس كثيرة، وبدأ يستشير أمه واحدة تلو الأخرى، وكأنه يستعد لرحلة طويلة إلى بلاد بعيدة. ضحك الأب من المنظر، وقال مازحًا :تظن نفسك مهاجرًا يا فتى؟ !ضحكة الأب ملأت البيت دفئًا، قبل أن ينهض هو الآخر متأهبًا للذهاب إلى عمله، تاركًا لزوجته مهمة مرافقة ثائر إلى رحلة انتظرها طويلًا.

***

احتاج المهندس خالد أبو جبر، أو كما يُعرف بين زملائه بـ"أبو محمود"، لبضع دقائق إضافية كي يتهيأ لمغادرة البيت متجهًا إلى شركته. بعضهم يناديه باسمه مجردًا: خالد، وآخرون يفضّلون اللقب العلمي الذي اكتسبه بجدارة "المهندس"، أما في بيته ومحيطه الاجتماعي فكنيته الغالبة "أبو محمود". أيًّا كان الاسم، فالاحترام ظلّ القاسم المشترك في كل حال.

خالد لم يكن مجرد موظف عابر في سجلات الشركة؛ بل عقل حاد، واسع الخبرة، وذو أخلاق راسخة جعلت منه قدوة وصديقًا قبل أن يكون مديرًا. لم يكن غريبًا أن يحصد ترقيات متتابعة، آخرها وصوله إلى منصب المدير التسويقي، المنصب الذي فتح أمامه أبوابًا من السفر الخارجي، وفرض عليه لقاءات متكررة في دول آسيوية وأوروبية.

«كان يحمل حقيبة تفوق حجمه... كأنما يستعد لرحلة إلى آخر الدنيا، لا مجرد زيارة لبيت الجد.»

هناك، بين المكاتب الزجاجية وغرف الاجتماعات، كان يمثل شركته، يسعى لتثبيت حضورها الاقتصادي عبر إبرام عقود وصفقات كبرى.

صباح ذلك اليوم كان موعدًا فارقًا. فما إن وطئت قدماه أرض المكتب حتى اندفع نائبه نحوه وعلى وجهه ابتسامة تحمل خبرًا طال انتظاره: الصفقة مع الشركة الصينية المتخصصة في تقنيات الحاسوب قد أُبرمت أخيرًا. ستة أشهر من المراسلات والاجتماعات والاقتراحات التقنية والمالية انتهت الآن بتوقيع رسمي، صفقة تعادل قيمتها مئات الآلاف من الدولارات. كان خالد قد بذل من وقته وجهده الكثير، سهر الليالي، وتابع أدق التفاصيل حتى اكتملت. والآن، ها هو النجاح يُعلن بصوت واضح.

وقف خالد لحظة، وأغلق عينيه، ثم خرّ ساجدًا في مكتبه يشكر الله على هذه النعمة. حين رفع رأسه، شعر لأول مرة منذ زمن أن الحمل الثقيل انزاح عن كتفيه. ابتسم وهو يستعيد حلمًا قديمًا كثيرًا ما أسرّ به إلى زوجته وفاء: حلم قطعة الأرض.

لطالما تخيّل تلك الأرض، فسيحة في وسط القطاع، تُبنى فوقها جدران بيت كبير يضم أبناءه ويخلّد اسمه. مرّات كثيرة لاح له الأمل، ثم أُطفئ فجأة لأسباب مالية أو لظروف قاهرة. كم مرة بدا له الحلم قريبًا ثم تبخر؟! لكن هذه المرة مختلفة. المال أصبح متاحًا، والفرصة أقرب من أي وقت مضى.

لقد كان قد أوصى أحد السماسرة الموثوقين منذ شهر أن يبحث له عن قطعة أرض مناسبة. وها قد وجدها: أرض جيدة في الجنوب الشرقي من المدينة، ذهب لرؤيتها فأُعجب بموقعها ومساحتها. بقي فقط أن يدفع ثمنها ليكتب اسمه عليها.

جلس على مكتبه، التقط سماعة الهاتف، طلب رقمًا واحدًا فقط... رقم السمسار. وفي قلبه كان يعرف: هذه المرة، لن يوقفه شيء.

***